من تراب الطريق (٣٨٦)

الباطن والظاهر(*) عند المتصوفة

(١)

من حكم ابن عطاء الله السكندرى : ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول . وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول !

(٢)

وقيل : ينبغى للعبد ألاّ ينظر إلى صور الأشياء ، ولينظر إلى حقائقها .. فصور الطاعات لا تقتضى وجود القبول ، ووجود صورة الذنب لا تقتضى إلا الإبعاد والطرد !

وقيل : رُبّ ذنبٍ أدخل صاحبه الجنة .

ذلك أن من عمل بالطاعة يعجب بها ويعتمد عليها وقد يتكبر بفعلها ويستصغر من لم يفعلها ، وهو عند وقوعه فى الذنب يصحبه اللجوء إلى الله تعالى والاعتذار إليه واستصغار نفسه وتعظيم من لم يقع فى مثل ذنبه .

(٣)

وقال أبوحازم : إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله من سيئةٍ أضرّ له منها ، وإن العبد ليعمل الحسنة تسوؤه وما خلق الله من حسنةٍ أنفع له منها .

(*) المال٦/ ١/ ٢٠١٠

وقال ابن عطاء الله السكندرى : «معصية أورثت ذلًا وافتقارًا ـ خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا» !

وقال أبو مدين : « انكسار العاصى ـ خيرٌ من صولة المطيع» !

وكان أبو العباس المرسى كثير الرجاء لعباد الله ، الغالب عليه شهود وسع الرحمة ، وكان تبرم الناس على قدر ريبتهم عند الله ، حتى إنه ربما دخل عليه المطيع فلا يعبأ ، وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه . لأن ذلك الطائع متكبر بعمله ناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه وذل مخالفته !

(٤)

قال الحارث المحاسبى : إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو العاصى وذَلَّ هيبةً ، فهو أطوع لله من العابد أو العالم .

قال أبوطالب المكى : ومن أفضل ما غذانا به الله ـ نعمة الإيمان . فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال ما يقلب نياتنا فى الأعمال ، فأى شىءٍ كنا نصنع ، وعلى أى شىءٍ كنا نعول ، وبأى شىءٍ كنا نطمئن ونرجو؟!

فالعبد مضطر إلى الله أبدًا ، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها .

وهذا هو حكم الحقائق ، إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. فالعلم صفته الكشف ، أى علم

كان فى أى وقت كان ، والإرادة صفتها التخصيص ، أى إرادة كانت فى أى وقت كان ، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره .

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم ـ سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطرار ليُعْرف قهر ربوبيته وعظمة إلهيته .

(٥)

كتب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك ، فإنك إن ذقتها لاتذوق بعدها خيرًا أبدًا !

(٦)

وقال الشيخ أبوعلى الدقاق : «من سكتت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته ، نطق بيان قلبه بحكم مجاهدته» . وقال : «من زين ظاهره بالمجاهدة ، حَسَّن الله سرائره بالمشاهدة» .

(٧)

قال الواسطى : استحلاء الطاعات سموم قاتلة ، وقال ابن عطاء الله فى «لطائف المنن» : صدق الواسطى ، فأقل ما فى ذلك أنه إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص فى سهوٍ منك ، وقد تحب دوامها لا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة ، فتكون فى الظاهر قائما لله ، وفى الباطن إنما قمت لحظ نفسك ، ويُخْشى أن تكون حلاوة الطاعة جزاء التعجل فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لك .

المطلوب من العبد إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن ،

والاستغناء به عن غيره ، فإذا رزق العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة .

(٨)

قال أبويزيد البسطامى : اطلع الله على قلوب أوليائه ، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة .

وقال أبوالعباس الدينَوَرى : إن لله عبادًا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته ، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفته .

وقال ابن عطاء الله السكندرى : قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠] .

(٩)

قال ابن عطاء الله السكندرى : «قطع السائرين لـه الواصلين إليه ، عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم . أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله ، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها» .

«السائلون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق والـبراءة فى الدعوى ، فهم أبدًا متهمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم . والواصلون قطعهم شهودهم له فى حضرة قربه .. ومن شاهده لم يشهد معه غيره ، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه !

(١٠)

وقال ابن عطاء الله : «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك» .

وقال : «ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجودٍ معه» ..

وقال : «لولا ظهوره فى المكونات ، ما وقع عليه وجود أبصار ، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» ..

وقال : «أظهر كل شيءٍ لأنه الباطن ، وطوى كل شيءٍ لأنه الظاهر» .

فاسم الظاهر يقتضى بطون كل شيءٍ حتى لا ظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كل شيء .

واسم الباطن يقتضى ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء بالحق تعالى الموجود بكل اعتبار .

«الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته» .

*****